حل ألغاز التاريخ

جيمس رو جونيور يقدم لمحة عن شخصية كارمن راينهارت التي تركز على الحقائق والتاريخ

لو كانت كلية ميامي ديد قدمت برنامجا دراسيا متخصصا في تصميم الأزياء ربما لم تكن كارمن راينهارت قد أصبحت خبيرة في الاقتصاد أبدا.

وبدلا من التصميم، اتجهت كارمن راينهارت إلى دراسة تسويق الأزياء — وهي أكثر خبيرات الاقتصاد ذات الأقوال المأثورة في العالم كما أنها شاركت في تأليف واحد من أهم كتب الاقتصاد في العقد الماضي.

«إنني أحب الفن كثيرا، وأحب الرسم كذلك. وقلت لنفسي في ذلك الوقت أنني بالفعل لم ألتحق بالكلية المناسبة لأصبح مصممة أزياء. إذن، سأرى ما إذا كنت سأحب تسويق الأزياء.»

ولكنها لم تفعل.

«إن مادة تسويق الأزياء تعلمك كيف تصبح مشتر. وليس لها في الواقع علاقة تُذكر بأي نوع من أنواع تصميم الأزياء ... أي بالجانب الفني له.» وكانت على قناعة بسوء اختيارها.

ولكن منهج التسويق استلزم دراستها لمادة مبادئ علم الاقتصاد. وقام أستاذها وهو «ماركسي قديم شديد الحماس» بالجمع بين مرجع عادي ونقد دوغلاس داود للرأسمالية الأمريكية في الحلم الملتوي (*The Twisted Dream*). وتقول «وانجذبت لهذه الفكرة كثيرا... ولم أقرر وقتها أن أصبح خبيرة في الاقتصاد.» وإنما قررت دراسة المزيد من مساقات علم الاقتصاد لأري ما إذا كنت سأحب هذه المادة. وقد فعلت.»

ومن هنا بدأت رحلة صعود كارمن راينهارت في مهنة الاقتصاد، عملت خلالها في وول ستريت وصندوق النقد الدولي والدوائر الأكاديمية — ومنها جامعة ميريلاند وموطنها الحالي، كلية كينيدي في جامعة هارفارد، حيث تشغل منصب أستاذ كرسي «مينوس زومباناكيس» في النظام المالي الدولي.

وخلال الأربع سنوات التي عملت فيها مع بنك الاستثمار «بير ستيرنز»، الذي لم يعد له وجود الآن، بدأ اهتمامها بالقضايا التي سادت بحوثها وهي الأزمات المصرفية والمالية وآثارها المتتابعة (العدوى)، والتدفقات الرأسمالية، ومؤشرات الدورات الاقتصادية في العالم، والدين (السيادي والخاص). وبعد مضي ما لا يزيد عن ستة شهور على التحاق كارمن راينهارت بالعمل في «بير ستيرنز» عام ١٩٨٢ توقفت المكسيك عن سداد ديونها الخارجية الضخمة. «ويا لها من تجربة مفيدة، حيث كنت أعمل في الأسواق المالية وأرى الآثار المتتابعة، كانتقال العدوى، والتأثير الواقع على البنوك، والتقلب... لقد تركت بصمة حقيقية في كل القضايا التي استرعت اهتمامي لاحقا.»

ومسار راينهارت ليس مطروقا أو مألوفا لخبراء الاقتصاد. ففي مهنة يهيمن عليها أصحاب النظريات وبُناة النماذج الاقتصادية، تركت راينهارت بصماتها بالبحث عن البيانات وسبر أغوارها وتنظيمها.

ولكنها لم تسلم من عاصفة انتقادات ألمت بها مؤخرا جراء الأسلوب الذي انتهجته هي وشريكها كينيث روغوف في تناول البيانات في بحث توصلا فيه إلى نتيجة تفيد بأن نسبة الدين الحكومي إلى إجمالي الناتج المحلي إذا تجاوزت ٩٠٪، تبدأ في التحول إلى عبء على النمو الاقتصادي في الأجل الطويل. وكان خبراء الاقتصاد قد ناقشوا هذه النتيجة منذ المرة الأولى التي قُدِّم فيها البحث في مطلع عام ٢٠١٠. ولكن بعد أن قال عدة خبراء اقتصاد من جامعة ماساتشوسيتس في

شهر إبريل الماضي إنهم توصلوا إلى وجود أخطاء حسابية ومنهجية وإلى حالات سهو «اختياري» عن البيانات، تحول الخلاف الأكاديمي إلى جدال عام.

وأقرت راينهارت وكذلك روغوف بوجود خطأ في الحساب لكنهما قالا إنه لم يؤثر على النتائج الكلية التي توصلا إليها. وذكرا أن الانتقادات الأخرى غير دقيقة وأن النتائج التي استخلصاها راسخة.

الخروج عن المألوف

كارمن راينهارت صاحبة تاريخ طويل في الخروج عن المألوف. وجاء أول أبحاثها المعروفة في عام ١٩٩٣ — مع اثنين من زملائها خبراء الاقتصاد في صندوق النقد الدولي غييرمو كالفو وليوناردو ليدرمان — متشككا في الاعتقاد السائد في صندوق النقد الدولي وأماكن أخرى بأن رأس المال كان يتدفق إلى بلدان أمريكا اللاتينية بسبب سياساتها الاقتصادية الجيدة. وبدلا من ذلك، افترض هؤلاء الاقتصاديون وجود عوامل خارجية — ومنها البيئة العالمية المواتية وانخفاض أسعار الفائدة — هي التي حفزت تدفق الاستثمارات التي كان من شأنها أن تتوقف بسرعة شديدة إذا تغيرت الأوضاع. وتقول راينهارت إنهم لو كانوا قد نظروا إلى آسيا، لرأوا نفس القضايا. وكان ثلاثتهم على حق، فالأوضاع الخارجية تغيرت، وبدءا بالمكسيك في عام ١٩٩٤، شهدت اقتصادات الأسواق الصاعدة — بما فيها آسيا في عام ١٩٩٧، وروسيا في ١٩٩٨، والأرجنتين في ٢٠٠١ — حالات من «التوقف المفاجئ» في التدفقات الرأسمالية.

وبعد مرور عدة سنوات أعربت كارمن راينهارت وزميلتها خبيرة الاقتصاد غراسييلا كامينسكي عن شكوكهما في الاعتقاد السائد بأن القناة الرئيسية لانتشار الأزمات من بلد إلى آخر هي الروابط التجارية. وبدلا من ذلك، فقد توصلتا إلى أن جذور العدوى ممتدة في قنوات مالية لم تكن تحظى حينئذ إلا بقدر يسير من الدراسة.

وكما قال كالفو، الذي يعمل حاليا في جامعة كولومبيا وهو واحد من أوائل واضعي النظريات في هذه المهنة، «إن كارمن لا تسير على النهج التقليدي لخبير الاقتصادي الأكاديمي الذي يقضي معظم وقته أو وقتها في استكشاف امتدادات غير مبررة في النموذج السائد. إنها مبدعة يدفعها — في المقام الأول والأخير — حدس قوي، تختبره بعد ذلك بالانتقال من البحث المتعمق عن الأدلة المتوافرة إلى تطبيق أحدث أساليب الاقتصاد القياسي.»

وتقول راينهارت إنها لم تتخذ أبدا قرارا محسوبا لتغليب الأدلة التجريبية على النظرية؛ إنها كذلك بطبيعتها. وتضيف «إن البيانات عنصر جيد، وهي أساسية بالنسبة لي. وفي النهاية، فالأمر كله يتعلق بحل الألغاز، إنها مسألة كشف الغموض. والطريقة التي اتبعها في كشف الغموض [هي] سبر أغوار البيانات والبحث عن الأنماط التجريبية المنتظمة للتعرف على الأنماط المتكررة... أتعرف، إنها كما يقول شرلوك هولمز عبارته الشهيرة «اللعب على أشده».

كانت تلك القدرة على التنقيب عن البيانات الاقتصادية وتنظيمها هي التي مكنت راينهارت وروغوف في كتابهما الأكثر مبيعا عام ٢٠٠٩ بعنوان «الأمر مختلف هذه المرة: ثمانية قرون من الحماقة المالية» (*This Time Is Different: Eight Centuries of Financial Folly*) من تقديم نظرة شاملة على مئات الأزمات الاقتصادية — أزمات الديون والمصارف والعملة والتضخم — في ٦٦ بلدا يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى وحتى اليوم. وعلى العكس من بحث راينهارت عام ٢٠١٠، لم يكن هذا الكتاب موضع جدل مثله كمثل بحوثها الزاخرة على مدى عقدين، ويبين أن الأزمات الاقتصادية الخطيرة مدمرة ولكنها لا تكاد تحدث إلا نادرا إلى درجة تجعلها على حد قول خبير الاقتصاد آلان تايلور العام الماضي في «جريدة الأدب الاقتصادي» (*Journal of Economic Literature*) «إن التجارب الأخيرة يمكن أن تعطي إرشادات غير دقيقة للعلماء ورجال الدولة على حد سواء» — وكان هذا هو السبب وراء إغفال إشارات التحذير بشكل كبير من الأزمة المالية العالمية التي بدأت منذ خمسة أعوام.

وكشف بحث راينهارت وروغوف (نصف الكتاب عبارة عن بيانات، جُمع معظمها من خلال عمليات بحث مضنية في مصادر غير معروفة) عن أوجه تشابه كبير عبر القرون في كيفية تكوين الأزمات الاقتصادية وكيفية زوالها. ولكن عدم الاكتراث بالناحية التاريخية أو الجهل بها أو التغاضي عنها يسمح لرجال الاقتصاد وصناع السياسات مرارا وتكرارا بنفي نُذُر الأزمات. وهذا ما أطلق عليه راينهارت وروغوف «متلازمة هذا الزمن مختلف» (This Time Is Different Syndrome)، والتي قالا عنها «إنها متأصلة في الاعتقاد القوي بأن الأزمات المالية أمور يتعرض لها آخرون في بلدان أخرى وأزمنة أخرى؛ ولكن نحن لا نتعرض لأزمات في هذا المكان وهذا الزمان. فنحن أفضل أداء، وأشد ذكاء، وتعلمنا من أخطاء الماضي. وقواعد التقييم القديمة لم تعد تنطبق علينا.»

إياك والدين

تقول راينهارت إن أحد النتائج الضمنية الرئيسية لبحثهما هو ضرورة اتخاذ صناع السياسات «حذرهم من دورات الدين، ومن دورات المديونية، ومن طفرات الائتمان، ومن طفرات الدين — فالدين الخاص يتحول إلى دين عام. ومتى وقعت في أزمة مصرفية مكتملة، لن تستطيع الخروج منها بسرعة.» وهنا ذكرت أن نتائجهما «لم تُعرض حقيقة بصورة كاملة.... فنحن نقول إنك عندما تكون غارقا في الدين المفرط — العام أو الخاص أو مزيج منهما — نادرا ما تخرج منه دون اللجوء إلى عنصر من عناصر إعادة الهيكلة.» ولا يصدق هذا الأمر على الأسواق الصاعدة وحسب وإنما ينطبق كذلك على الاقتصادات المتقدمة.

وبدأت بحوثهما تؤتي ثمارها مع انهيار سوق الرهون العقارية في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٧ — وهو أول أحداث الأزمة المالية العالمية التي تضاهي «الكساد الكبير» في ثلاثينات القرن العشرين. وقدم راينهارت وروغوف بحثا في الاجتماع السنوي للرابطة الاقتصادية الأمريكية في يناير ٢٠٠٨، أوضحا فيه أن المؤشرات الاقتصادية المشتركة في الولايات المتحدة — تضخم أسعار الأصول، وتزايد المديونية، والعجز الكبير في الحساب الجاري، وتباطؤ النمو الاقتصادي — كانت تنذر بوقوع البلاد الوشيك في أزمة مالية حادة.

وأضافت «نفى البعض احتمال وقوع أزمة كهذه في الولايات المتحدة» بينما جاء البحث بعنوان «هل أزمة القروض عالية المخاطر في الولايات المتحدة مختلفة إلى هذا الحد؟ (Is the U.S. Subprime Crisis That Different?) فأثار حفيظة البعض الآخر. وبعد تقديم البحث قالت إنها هي وروغوف اتفقا في الرأي على أنه إذا لم تقع أزمة بالفعل سيبدوان كالحمقى. وأضافت «ولكن، كما تعرف، فقد وقعت الأزمة.»

وبعد مرور عام — ولم يكن قد مضى وقت طويل على انهيار بنك الاستثمار ليمان برادرز، وتوقف نشاط أسواق المال، وانتشار الأزمة المالية في أنحاء العالم — ظهر المؤلفان في اجتماع الرابطة الاقتصادية الأمريكية في يناير ٢٠٠٩ ومعهما تنبؤ آخر مثير للقلق اعتمادا على سجلهما التاريخي الكبير الذي حققاه. وطرح بحثهما بعنوان «في أعقاب الأزمات المالية» (Aftermath of Financial Crises) نقطتين كانتا موضع شك في ذلك الوقت لكن ثبتت دقتهما فيما بعد. وقالت إن النقطة الأولى كانت تشير إلى أن حالات الركود التي تبدأ خلال هذه الأزمات «تكون طويلة وحادة للغاية». والنقطة الأخرى هي وصول الدين الحكومي إلى مستويات بالغة الارتفاع: فتبين من تحليلهما أن الدين كان يرتفع بمقدار الضعف تقريبا بعد استبعاد أثر التضخم في الثلاث السنوات اللاحقة لكل أزمة من الأزمات الكبيرة التي وقعت على المستوى الوطني منذ الحرب العالمية الثانية.

وقالت إن عددا كبيرا من الاقتصاديين وصناع السياسات أسموهما نذير المخاطر لتنبؤهما بارتفاع الدين إلى هذا المستوى، ثم أضافت،

ولكن في الحقيقة هناك بعض البلدان التي كانت قد سجلت بالفعل ارتفاعا أكبر بكثير.

أما البحث الذي عرضاه في يناير ٢٠١٠ أثناء اجتماع الرابطة الاقتصادية الأمريكية فقد أثار قدرا أكبر من الجدل. فتشكك كثير من الاقتصاديين في أن نسبة ٩٠٪ هي النقطة الحرجة — وخاصة في بلدان مثل الولايات المتحدة اقترضت بعملاتها. كذلك تشكك النقاد فيما إذا كان الدين يسبب تباطؤ النمو أم العكس. وعلى أي حال، أصبح هذا البحث جزءا من الجدل السياسي الحاد حول التقشف مقابل التنشيط والذي يتحدث عنه كثير من رجال السياسة وغيرهم من المنادين بتخفيض العجز الحكومي — وإن لم يتخذ موقفا محددا بشأن أي منهما.

وادعى الاقتصاديون في جامعة ماساتشوسيتس أن البحث بعنوان «النمو في أوقات الدين» (Growth in a Time of Debt) تشوبه عيوب تحليلية وأنها اختارت استبعاد بيانات موجودة واستخدمت أساليب غير تقليدية في قياس الأوزان الإحصائية. وأثار ذلك موجة حادة من النقد ممن يدعمون التنشيط خلال هذه الفترة التي تشهد نموا اقتصاديا بطيئا — بما في ذلك رجال الاقتصاد، وحتى مستضيفي برامج الرأي «التوك شو» التي تُعرض في أوقات متأخرة من الليل.

وأقر كل من راينهارت وروغوف في تصريحات عديدة بأنهما ارتكبا خطأ في اللوحة الجدولية (spreadsheet)، لكنهما قالا إنه لم يؤثر على معظم حساباتهما أو على النتيجة الرئيسية التي توصلا إليها: وهي أن ارتفاع مستويات الدين يتحول إلى عبء على النمو. وقالا أيضا إن أساليب قياس الأوزان الإحصائية لم تكن غير تقليدية، وأغضبهما الرأي القائل أنهما أغفلا بيانات لتعزيز حجتهما. وذكرا أن البيانات الناقصة لم تكن متوافرة أو لم تكن قد خضعت للفحص الكامل حينما قدما النسخة الأولى من البحث، ولكنها أُضيفت إلى قاعدة البيانات في موقعهما الإلكتروني الخاص وإلى التعديلات المتكررة التي أُدخلت لاحقا على البحث (بما فيها مقال نُشر في صحيفة «*Journal of Economic Perspectives*» الصادرة عن الرابطة الاقتصادية الأمريكية في عام ٢٠١٢ والذي تتبع العلاقة بين الدين والنمو على مدى ٢٠٠ عام). وظلت النتائج التي توصلا إليها دون تغيير.

الهروب من كوبا

تحدثت راينهارت عن مراحل حياتها الأولى واصفة إياها بأنها «القصة المعتادة لأي مهاجر إلى أمريكا.» وكان اسمها قبل الزواج كارمن كاستيلانوس، هربت مع أبويها مما اعتبراه موقفا متزايد الخطورة في كوبا عام ١٩٦٦. وتقول إن أسرتها التي تنتمي للطبقة المتوسطة لم تكن تشعر في البداية بأي تهديد مباشر من ثورة ١٩٥٩ التي قادها فيدل كاسترو وأطاح بالدكتاتور فولغينسيو باتيستا.

ولكن مع مرور الوقت «فإن الفترة التي عمتها الفوضى في البداية أصبحت أكثر تنظيما؛ وكان من الواضح أن القمع وزيادة التنظيم جاءا يدا بيد.»

وكان أخوها، الذي يكبرها بأحد عشر عاما، «قد وقع في مشكلة بسبب تفوهه بكلمات اعتُبرت معادية للثورة» فغادر البلاد قبل بقية الأسرة بعام واحد. واستقر في نهاية المطاف في مدينة باسادينا بولاية كاليفورنيا حيث لحقت به هي وأبويهما.

لقد كانت بداية صعبة على أرض جديدة — فتحولوا بلا تردد من طبقة الموظفين أصحاب الياقات البيضاء إلى طبقة العمال أصحاب الياقات الزرقاء. فأبوها، الذي كان يعمل محاسبا في مصنع جعة في كوبا استبدل الطبقة المستريحة بطبقة كادحة فعمل نجارا. وأمها، التي لم تكن قد مارست أي عمل خارج المنزل، أصبحت خياطة «تحيك الستائر — وليس الملابس، وإنما الستائر. وتقول راينهارت، ولا أزال حتى يومنا هذا مولعة بالستائر. فلا أستطيع أن أدخل أي غرفة دون إلقاء نظرة على ستائرها.

كانت النقلة بالغة الصعوبة وبالأخص على الطفلة التي كانت في العاشرة من عمرها. وخلال ٦٠ يوما من وصولها، أُصيبت كارمن بالحمى الروماتيزمية فتقول: «كان الجزء الأيسر من جسدي مشلولا بالكامل .... وأنا أستخدم يدي اليُسرى، إذن عندما أقول إن الجزء الأيسر كان مشلولا أعني أنه لم يكن أمرا هينا. واستغرق الأمر وقتا حتى تغلبت بحق على هذه الحالة. فتأخرت عاما دراسيا، وما بين الصدمة التي أصابتني من ذلك كله وعدم معرفتي إلا بأقل القليل من الكلمات باللغة الإنجليزية، لم يكن التحول هينا.»

ولكنها استقرت بعد ذلك، وأصبح لها أصدقاء، وتعلمت اللغة الإنجليزية وبدأت تحقق «نجاحا حقيقيا في الدراسة»، لكي تُقتلع من جذورها مرة أخرى بعد مضي أربع سنوات عندما انتقلت أسرتها من مدينة باسادينا إلى جنوب ولاية فلوريدا للعيش في مكان أقرب إلى بعض الأقارب الذي هاجروا من كوبا في الفترة الأخيرة. وسمحت لها هذه النقلة بخوض معركتها في كلية ميامي ديد التي حولت اهتمامها من الأزياء إلى المالية والاقتصاد.

وانتقلت كارمن إلى جامعة فلوريدا الدولية، حيث التقت مع بيتر

الأمر الذي كان يروقني حقا هو تبني فكرة ما.

مونتييل، المُعلِّم الذي كان بصدد الانتهاء من الإعداد لنيل درجة الدكتوراه من معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا. ومونتييل الذي يعمل الآن أستاذا للاقتصاد في كلية ويليامز، كان يوجهها في دراستها. وتقول راينهارت «أصبح واضحا بالنسبة لي أنني أرغب حقا في مواصلة الدراسة في المرحلة العُليا.»

وقال مونتييل، وهو أيضا من أصل كوبي، إنه عاد إلى ميامي لتعليم الطلاب الكوبيين الذين لم يسعوا للدراسة في أماكن بعيدة عن منازلهم لأسباب ثقافية وأسباب تتعلق في العادة بأسرهم. وكانت جامعة فلوريدا الدولية جامعة عامة مليئة بأمثال أولئك الطلاب المتألقين الذين كان في وسعهم الدراسة في أي مكان. ويضيف، ومن بينهم راينهارت التي كانت «النجمة المتألقة». ويتذكر مونتييل أنه كان «لديها فضول ذهني وقدرة هائلة على العمل الشاق. كانت تفعل كل ما تحتاج إليه لكي تتعلم.»

وتخرجت كارمن من الجامعة عام ١٩٧٨ واتجهت إلى جامعة كولومبيا — فجاء هذا القرار مدفوعا بقلق أمها على ابنة غير متزوجة تغادر المنزل ومدفوعا بنفس القدر بالانجذاب إلى كلية كولومبيا التي كانت تعج بالنجوم. وتذكر «كانت تربيتي نوعا ما من طراز القرن الخامس عشر في إسبانيا.» كان لدي أبناء عمومة في نيويورك «وكان في استطاعتهم أن يتابعوا أحوالي.»

وفي كولومبيا التقت بزوجها، فانسنت راينهارت، الذي شغل مناصب عليا في مجلس الاحتياطي الفيدرالي وهو الآن كبير الاقتصاديين في شركة الخدمات المالية العملاقة « مورغان ستانلي». وعملا معا في إعداد عدد من البحوث على مر السنوات.

وفي عام ١٩٨٢، بعد حصولها على درجتي ماجستير في الاقتصاد والانتهاء من الاختبارات الضرورية لمرحلة الدكتوراه، تركت كارمن راينهارت العمل الأكاديمي لتعمل كخبير اقتصادي في بنك «بير ستيرنز»، وهو أحد بنوك الاستثمار متوسطة الحجم والذي تضرر بعد مرور ربع قرن من الأزمة المالية العالمية في أولى مراحلها. كانت قد تزوجت لتوها وترغب في كسب مستوى لائق من العيش، إضافة إلى ولعها منذ فترة طويلة بالأسواق المالية. وفي غضون ثلاث سنوات، تبوأت مركز كبير الاقتصاديين.

ولكن بحلول عام ١٩٨٦، كانت تشعر بالإحباط، على حد قولها، وأدركت أن العمل كخبير اقتصادي في بنك استثمار لا يناسبها. «الأمر الذي كان يروقني حقا هو تبني فكرة ما — والمصطلح المتعارف عليه بين أصحاب مهنتنا هو موضوع بحث — ثم أحاول أن أحقق بها شيئا.» أما في وول ستريت «فلم يكن لديك وقت حقيقة للتعمق لأنه كان عليك الانتقال إلى موضوع اليوم التالي ثم موضوع اليوم الذي يليه وهكذا.» ومن ثم، فقد عادت إلى جامعة كولومبيا وسرعان ما انتهت من رسالتها العلمية تحت إشراف روبرت ماندیل الحائز على جائزة نوبل.

ثم جاء العمل في صندوق النقد الدولي. كانت قد انضمت إلى «بير ستارينز» مباشرة قبل بدء أزمة الديون السيادية في أمريكا اللاتينية، ومن هنا بدأ انبهارها بدور صندوق النقد الدولي في محاولة حل الأزمة التي امتدت لسنوات. «كنت أرغب في تجربة السياسة». وكان هذا هو أول المنصبين اللذيْن شغلتهما في المؤسسة المالية الدولية، فبدأت العمل كخبير اقتصادي في إدارة البحوث.

وكتبت عدة بحوث مهمة، منها تحليل مسألة التدفقات الرأسمالية إلى أمريكا اللاتينية المثيرة للجدل بالتعاون مع كالفو وليدرمان عام ١٩٩٣. وعندما ننظر إلى أقوالها المأثورة (وفق إحصاءات موقع غوغل سكولار (Google Scholar))، كان أكثر بحوثها تأثيرا على هذه المهنة هو الذي أعدته لأول مرة عام ١٩٩٥ بالتعاون مع كامينسكي ونُشر في صحيفة "*American Economic Review*؟" عام ١٩٩٩. وتوصل البحث بعنوان «الأزمات التوأم: أسباب أزمات البنوك وموازين المدفوعات» (The Twin Crises: The Causes of Banking and Balance of Payments Crises) إلى أن مشكلات القطاع المصرفي في بلد ما كانت عادة ما تسبق أزمة عملة، الأمر الذي كان يؤدي إلى تفاقم الأزمة المصرفية. وكان كلاهما يأتي عقب فترة طويلة من الانتعاش الاقتصادي الذي «نشأ بسبب الائتمان، وتدفقات رؤوس الأموال الداخلة، واقترن بالمبالغة في قيمة العملة.» وأُعدت المسودة الأولى مباشرة بعد الانهيار في المكسيك عام ١٩٩٤. وفي الوقت الذي نُشر فيه البحث، كانت هناك عدة بلدان آسيوية تعاني من أزمات مالية حادة. وتذكر أن البحث حدد بصفة أساسية «الأسباب وراء ما تفضي إليه مشكلة مصرفية كتلك التي لحقت بتايلاند [في ١٩٩٧] من تقويض لسعر الصرف وتحول أزمة مصرفية إلى انهيار للعملة.»

كذلك استكشف بحث «الأزمات التوأم» العوامل السابقة على حدوث أي انهيار — أي المؤشرات التي ربما أدى سلوكها إلى توقع أزمة، والتي تناولتها فيما بعد هي وروغوف بمزيد من التعمق في البحث بعنوان «هذا الزمن مختلف» (*This Time Is Different*). كما أنها أثارت اهتمام كامينسكي وراينهارت بقضية العدوى. وكان معظم الباحثين في ذلك الوقت يعتقدون أن الأزمات تنتشر من بلد إلى آخر من خلال الروابط التجارية. ولكن في البحث بعنوان «عن الأزمات والعدوى واللبس» (On Crises, Contagion, and Confusion)، قلت أنا وغراسييلا «أعتقد أن الروابط المالية هي العامل الرئيسي هنا، وكذلك مسألة الانكشاف أمام نفس المقرضين في الجهاز المصرفي.» وقالت إنها رأت تكرار مرحلة بداية أزمة الدين في أمريكا اللاتينية عام ١٩٨٢، عندما توقفت البنوك (معظمها أمريكي) ليس عن إقراض المكسيك وحدها، وإنما أيضا جميع المقترضين في أمريكا اللاتينية. وأضافت «كان التاريخ يعيد نفسه في آسيا» إثر الانهيار في تايلند، باستثناء أمر واحد وهو أن البنوك كانت يابانية. «لقد بدأت تعيد التوازن في مواجهة مخاطر حوافظها، وانسحبت من كوريا، وانسحبت من إندونيسيا.»

وفي عام ١٩٩٦، تركت راينهارت العمل في صندوق النقد الدولي وانضمت إلى كالفو — في جامعة ميريلاند آنذاك والتي ستظل موطنها الاقتصادي حتى عام ٢٠١٠، عندما ذهبت بصورة تعاقبية سريعة إلى معهد بيترسون للاقتصاد الدولي ثم جامعة هارفارد.

وكانت قد عادت إلى صندوق النقد الدولي في عام ٢٠٠١، بإيحاء من روغوف لتعمل نائبة له بعد فترة قصيرة من تعيينه في وظيفة كبير الاقتصاديين ومدير إدارة البحوث. وفي صندوق النقد الدولي تفتق ذهناهما عن فكرة «هذا الزمن مختلف.» ومرت هذه الأطروحة بمرحلة تكوين طويلة — فترجع إلى بحث عام ١٩٩٣ مع كالفو وليدرمان، حينما واجهت راينهارت لأول مرة «متلازمة هذا الزمن مختلف.» وافترض الاقتصاديون الثلاثة أن التدفقات الرأسمالية لم تكن ظاهرة جديدة، وإنما كانت ناتجة عن عوامل خارجية، ومن شأنها أن تغير مسارها بسرعة. «وكان الرد المدافع الذي يأتينا، كما تعلم، هو هذا الزمن مختلف ... إنه ليس كالوضع في أواخر السبعينات.» وتكرر الوضع نفسه في آسيا بعد مُضي عدة سنوات، حينما سخر كثيرون من التحذير من ضخامة العجز الخارجي والتدفقات الرأسمالية الداخلة. وتقول راينهارت ساد اعتقاد عام في آسيا بأن الأزمات المالية «لا تقع هنا، وإنما تحدث في أمريكا اللاتينية.»

وتبلورت أفكارها هي وروغوف بصورة أوضح في بحث كتباه عام ٢٠٠٣ مع زميل لهما من صندوق النقد الدولي هو ميغل سافاستانو. وتوصلوا في الدراسة بعنوان «عدم تحمل الدين» (Debt Intolerance) إلى أنه على الرغم من الاعتقاد بأن المشكلات وحالات عدم السداد «مجالها هو الأسواق الصاعدة،» كان للاقتصادات المتقدمة تاريخ مشابه «يعود إلى القرن الخامس عشر.» وقبل تركهما للعمل في صندوق النقد الدولي، قرر كل من راينهارت وروغوف أن هذا النوع من العمل يستحق تأليف كتاب وليس مجرد بحث. ولكنهما لم يبدءا في العمل جديا حتى عام ٢٠٠٦ ليستندا في عملهما على البحوث التي قاما بها على مر السنوات.

وذكرت راينهارت أن جهودها في استقصاء الحقائق كانت تقوم على ثلاثة محاور. فكانت تقوم «يوما بعد يوم» بالتنقيب «عن مراجع ومصادر للبيانات في شبكة الإنترنت»، وشمل ذلك التوصل إلى باحث في مجال الأسعار كان يجمع معلومات من سجلات الأديرة. وكانت تبحث باستمرار في موقع AbeBooks، وهو مصدر على شبكة الإنترنت للكتب النادرة التي نفذت طبعاتها وصدرت في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وكندا. وتقول «على مدى فترة طويلة كانت تصلني في بيتي شحنات بصفة يومية.» ثم أصبحت دائمة التردد على مكتبة الاحتياطي الفيدرالي، حيث كان زوجها مدير قسم الشؤون النقدية آنذاك. وكانت مكتبة الاحتياطي الفيدرالي مستودعا لكثير من الإحصاءات الاقتصادية المجهولة.

وتمكن زوجها «بأعجوبة» وبالرجوع إلى مصادر متعددة من تكوين مجموعة شاملة من كل البيانات الاقتصادية التي كانت عصبة الأمم قد نشرتها. كانت تلك هي هديتها في عيد الحب في ذلك العام.

وإذا كان التوصل إلى بيانات أمرا شاقا، فتنظيمها شاق أيضا. «وليس ثمة شك أنها عملية تنطوي على كثير من المصاعب.» وتذكر إحدى تجاربها المثيرة ذات يوم في الثالثة صباحا عندما كانت تحاول «إحصاء أعداد الرقم صفر» في بلدان كانت تعاني من التضخم المفرط. «إنه كابوس.»

لكن العمل الجاد أتى ثماره، ونتج عنه «هذا الزمن مختلف». والبحثان اللذان عُرضا على الرابطة الاقتصادية الأمريكية في عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ أثارا الكثير من الاهتمام إلى حد جعل الناشر، وهي مطبعة جامعة برنستن، يدفعهما إلى الانتهاء من هذا العمل. ونتيجة لذلك، صدر الكتاب في عام ٢٠٠٩ ولكنه لم يتضمن سوى معالجة وافية لأزمات البنوك والدين. وقالت إنه لم يتح لهما الوقت الكافي لإجراء فحص كامل فيما يخص «أزمات التضخم، وحالات انهيار العملة، والضوابط على رأس المال.» ويخطط كل من راينهارت وروغوف لإجراء معالجة كاملة لهذه القضايا واستخدامها كمادة في إعداد كتاب آخر.

وهذا الكتاب من المرجح أن يقدم مزيدا من الأدلة على أن أصحاب مهنة الاقتصاد قضوا وقتا طويلا جدا وضعوا فيه نظريات بناء على بيانات كانت محدودة للغاية وحديثة للغاية، ولم يعطوا اهتماما كافيا للتاريخ والبيانات، مما حال دون إدراكهم في الوقت المناسب لأكثر الأزمات الاقتصادية تدميرا في ٥٧ عاما. ■

جيمس رو جونيور هو محرر أول في مجلة التمويل والتنمية.

المراجع:

Taylor, Alan M., 2012, "Global Financial Stability and the Lessons of History: A Review of Carmen M. Reinhart and Kenneth S. Rogoff's This Time Is Different: Eight Centuries of Financial Folly," Journal of Economic Literature, *December, pp. 1092–105.*